قاهر الموت

للقديس يوحنا الذهبى الفم

اليوم يجتاز الرب فى الهاوية. اليوم يحطم الأبواب النحاسية ومتاريسها الحديدية. لاحظ الدقة، فهو لم يقل فتح الأبواب لكن "سحق الأبواب النحاسية" (مز١٠٧: ١٦)، لم يخلع المتاريس لكن سحقها لكى يُبطل السجن.

من يستطيع أن يفعل شيئاً أمام قوة المسيح؟ من يصحح ما قد دمره الله؟

فالملوك عندما يحررون المسجونين لا يفعلون ما فعله المسيح، لكن يعطون أوامرهم بعتق المسجونين ويبقون الأبواب والحراس، مظهرين هكذا إمكانية أن يستخدم هذا السجن مرة ثانية ليدخل إليه ـ إذا اقتضى الأمر ـ أولئك الذين تحرروا بأمر الملك أو آخرون بدلاً منهم. لكن المسيح لا يعمل بهذه الطريقة. إذ سحق الأبواب النحاسية قاصداً أن يُبطل الموت. ودعاها "نحاسية" لكى يُظهر مدى صلاحيتها وعدم سهولة انحلال الموت. ولكى تعلم أن النحاس والحديد يشيران إلى الصلابة، اسمع ماذا يقول الله لشخص وقح: "لمعرفتى انك قاس وعضل من حديد عنقك وجبهتك نحاس" (اش٤٨: ٤). وعبّر هكذا لا لأنه له عضل من حديد أو جبهة من النحاس، لكن بسبب أنه أراد أن يشير إليه بأنه صارم ووقح وقاسى.

هل تريد أن تعلم كم أن الموت قاسى ومؤلم وعديم الشفقة؟

إنه لم ينتصر عليه أحد وتحرر منه، حتى أتى رب الملائكة وانتصر عليه. حسناً، لقد أخذ الرب أولاً الشيطان وحبسه وانتصر عليه. لذلك مكتوب: "وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ" (إش ٤٥: ٣). بالرغم من أنه أشار إلى مكان واحد (الظلمة)، إلا أن له أهمية مزدوجة. فتوجد أماكن مظلمة لكنها يمكن أن تصير منيرة إذا وضعنا فيها مصابيح. وأماكن الهاوية كانت مظلمة جداً جداً ومؤلمة ولم تدخلها أشعة النور مطلقاً، لذلك توصف بأنها مظلمة وغير منظورة. كانت مظلمة حتى اللحظة التى نزل فيها البر وأضاء الهاوية بنوره فجعلها سماء. لأنه حيث يوجد المسيح يتحول المكان إلى سماء. وحسناً سُمى ما بهذا المكان ب "ذخائر الظلمة"، لأنه يوجد به غنى وفير. إذ أن كل الجنس البشرى الذى هو غنى الله (ذخائر) كان قد سرق بواسطة الشيطان الذى خدع الإنسان الأول واستعبده للموت. وحقيقة كون الجنس البشرى هو بمثابة غنى الله، قد أشار إليه بولس حين قال: "لأن رباً واحداً للجميع غنياً لجميع الذين يدعون به" (رو١٠: ١٢). ومثل لص سرق المدينة ونهبها واختفى فى كهف واضعاً فيه كل الأشياء الثمينة، فقبض عليه الملك ثم بعد ذلك سلمه للعقاب ونقل كنوزه إلى المخازن الملوكية. هكذا فعل المسيح، إذ بموته سجن اللص وقيده أى الشيطان والموت، ونقل الكنوز، أعنى الجنس البشرى، إلى الخزائن الملوكية. هذا ما يعلنه بولس الرسول بقوله: "الذى أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته" (١كو١: ١٣). والأهم هو أن ملك الملوك (المسيح) قد انشغل بهذا الحدث، فى الوقت الذى فيه لا يقبل أى ملك آخر فعل هذا الأمر، بل يكتفى بإعطاء أمر إلى عبيده لكى يحرروا المسجونين. لكن ـ كما قلنا ـ لا يحدث هنا مثل هذا الأمر، بل جاء ملك الملوك نفسه إلى المسجونين، ولم يخجل سواء من السجن أو المسجونين. لأنه كان من المستحيل أن يخجل من خليقته. فسحق الأبواب وحل المتاريس وفرض سيادته على الهاوية. ونقل الطاغية أسيراً والقوى مقيداً. الموت نفسه ألقى أسلحته وأسرع مستسلماً وأعلن طاعته إلى الملك.

هل رأيت النصرة الجديرة بالإعجاب؟

هل رأيت مآثر الصليب؟

هل أقول لك شيئاً آخر جدير بالإعجاب؟

إذا عرفت بأى طريقة انتصر المسيح، سوف يصير إعجابك أعظم. فبنفس الاسلحة التى غلب الشيطان بها الإنسان، انتصر المسيح عليه. واسمع كيف؟

عذراء وخشبة وموت هى رموز هزيمتنا. العذراء كانت حواء، لأنها لم تكن قد عرفت رجلها. والخشبة كانت الشجرة (التى أوصى الله آدم بألا يأكل منها) والموت كان عقاب آدم. لكن العذراء والخشبة والموت كانت رمز لهزيمتنا، صارت رموز للانتصار. لأن لدينا مريم العذراء بدلاً من حواء، ولدينا خشبة الصليب بدلاً من شجرة معرفة الخير والشر، ولدينا موت المسيح بدلاً من موت آدم. هل رأيت، فالشيطان هُزم بنفس الاسلحة التى انتصر بها قديماً؟!

لقد حارب الشيطان آدم وانتصر عليه بالقرب من شجرة، والمسيح انتصر على الشيطان فوق خشبةو الصليب.

الشجرة الأولى قادت البشر إلى الجحيم، أما الثانية فقد حملتهم من الهاوية إلى الحياة.

أيضاً الشجرة الأولى أخفت الأسير إذ كان عارياً، أما الثانية فأظهرته للجميع جهاراً، أى المسيح المنتصر الذى كان عارياً معلقاً فوقها.

وأيضاً الموت الأول أدان كل الذين ولدوا من بعده، بينما الثانى، أى موت المسيح، قد أقام أولئك الذين عاشوا قبل المسيح: "من يستطيع أن يصف بالأقوال قوة الرب" (مز١٠٦: ٢ سبعينية). كنا أموات وها قد صرنا أحياء.

هذه هى مآثر الصليب، هل عرفت هذه النصرة؟! عرفت بأى طريقة تحققت؟ انظر الآن كيف تحققت بدون تعب. لم تتخضب أسلحتنا بالدم، ولم نصطف فى المعركة، ولم نُجرح، ولا شاركنا فى أى معركة ولكن انتصرنا. حارب الرب ونحن أخذنا التيجان. ولأن النصرة هى ملك لنا، فدعونا نرنم جميعاً اليوم ترنيمة النصرة: "أين شوكتك يا موت أين غلبتك يا هاوية؟" (هوشع١٣: ١٤، ١كو١٥: ٥٤ـ ٥٥).

هذا ما حققه الصليب

الصليب الذى هو رمز النصرة على الشياطين، هو سكين ضد الخطية، وسيف طعن به المسيح الحية.

الصليب هو إرادة الآب ، زينة الملائكة، حامى القديسين، نور كل المسكونة.

لأنه مثلما يطرد إنسان الظلام من بيته، عندما يضئ مصباحاً ويرفعه عالياً، هكذا أضاء المسيح الصليب كمصباح ورفعه عالياً، لينقشع كل الظلام الذى كان يغطى الأرض.

ارتعبت الخليقة عندما رأته معلقاً فوق الصليب، والأرض تزلزلت والصخور تشققت. وبالرغم من أن الصخور تشققت إلا أن إحساس اليهود لم ينتابه أى تغيير. حجاب الهيكل انشق، إلا أن اتفاقهم الفاسق لم ينحل.

لماذا انشق حجاب الهيكل؟ لأن الهيكل لم يقو على رؤية الرب مصلوباً. وكأن الهيكل يتحدث إلينا وينصحنا: "من يريد أن يدخل إلى قدس الأقداس فليدخل بكل حرية. لأنه ما فائدة هذا الحاجز، طالما أن الذبيحة قُدمت خارجاً؟ أى فائدة يمكن أن يقدمها الناموس؟ لا فائدة كما علمتكم مراراً. هذا ما علّمه النبى داود عندما قال: "لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل" (مز٢: ١). وقد سمعوا: "كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها لم يفتح فاه" (اش٥٣: ٧). وبينما قد درسوا هذه النبوة أزمنة عديدة إلا أنها بعد أن تحققت لم يؤمنوا بها. أرأيت انهم تفكروا باطلاً! لذلك انشق من الوسط حجاب الهيكل، وهكذا أنبأ عن زمن خرابه الذى كان عتيداً أن يكون بعد هذه الأحداث.

إذن، لأنه علينا أن نرى الرب ـ هذه الليلة ـ معلقاً على الصليب كحمل مذبوح، ارجوكم أن نقترب إليه بخوف وتقوى. ألم تروا كيف وقفت الملائكة أمام القبر، بينما لم يوجد فيه جسد المسيح بل كان فارغاً؟ ولكن لأنه قد سبق ووضع فيه جسد الرب لذلك قدموا له كل الاحترام والوقار. إن الملائكة التى هى أعظم منا وقفت باحترام ووقار أمام القبر الفارغ. ونحن الذين نقف أمام المائدة المقدسة التى عليها الحمل نتصرف بضوضاء وضجة؟ كيف ننال إذن الغفران؟! إننى أرى كثيرين

هذه الليلة يسببون ضجة ويصرخون ويزاحمون بعضهم بعضاً ويتعاركون ويشتمون ويجلبون بالأكثر على أنفسهم عقاباً بدلاً من الخلاص. لذلك أتحدث عن هذه الأمور من أجل خلاصهم.

ماذا تفعل أيها الإنسان؟ عندما تقف أمام المائدة المقدسة، والكاهن يرفع يديه إلى السماء داعياً الروح القدس لينزل ويقدس التقدمات الموجودة على المائدة، علينا بالهدوء والسكون. عندما تحضر نعمة الروح القدس وتنزل وتقدس التقدمات، عندما ترى الحمل المذبوح والمكسور، هل تفعل ضجة وإزعاج ومشاجرات وشتائم؟ كيف تستطيع أن تستمتع بهذه الذبيحة وأنت تُقبل على هذه المائدة بطريقة مزعجة؟ ألا يكفى أننا خطاة ونشترك فى هذه الذبيحة ولا نريد أن نتخلص حينئذ من خطايانا؟ لأنه كيف نحفظ أنفسنا بعيداً عن الخطايا حين نتشاجر، ونفقد هدوئنا ويضايق الواحد الآخر؟

اخبرنى لماذا تُسرع وتزاحم الآخرين عندما ترى الحمل المذبوح؟ لماذا إن كنت طول فترة الليل تحفظ صيامك، هل أتعبك هذا؟ انتظرت بإصرار طول النهار، ومعظم الليل قد مرَّ، وأنت فى هذه اللحظة تجعل تعبك هباء؟

ينبغى عليك أن تعى ما يحدث أمامك ولأى سبب صار؟

فالمسيح قد دُبح لأجلك وأنت تتجاهله بينما تراه مذبوحاً، ما هذا الذى سال؟ إنه الدم الذى محا الصك الذى كان مكتوباً عليه خطايانا، دم يطهر النفس، دم يغسل أوساخ الخطية، دم انتصر على السلاطين ورؤساء الشر.

لأنه يقول: "إذ جرد الرياسات والسلاطين وأشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه" (كو٢: ١٥). فكما أن النصب الذكارى (للملوك) يزين بأدوات وأسلحة النصرة. الغنائم عُلقت عالية فوق الصليب. لأنه ملك عظيم انتصر فى معركة عظيمة، فإنه يضع فوق النصب التذكارى، فى مكان عال: الدرع والترس وأسلحة العدو، هكذا المسيح إذ انتصر على الشيطان أى الموت واللعنة، لكى يرى الجميع هذا النصب: القوات الملائكية التى هى فى السموات والبشر الذين على الأرض، والشياطين الشريرة التى هُزمت، الجميع يرونه.

ليتنا نبرهن بكل قدرتنا أننا جديرون بهذه الخيرات التى قدمها لنا المسيح، حتى نكسب الملكوت السماوى بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح مع الآب والروح القدس الذى له المجد والكرامة من الآن وإلى أبد الآبدين آمين.